وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

٢٢١

معانى الكلمات :

إن يمسسك : وإن يصبك .

بوكيل : بحفيظ .

أحكمت آياته : نظمت .

فصلت : فرقت فى التنزيل بالحكمة ولم تتنزل جملة واحدة.

من لدن : من عند .

أجل مسمى : الموت .

يثنون صدورهم : يطوونها على الكفر والعداوة .

ليستخفوا منه : جهلاً منهم باطلاعه عليهم .

يستغشون ثيابهم : يتغطون بها مبالغة فى الاستخفاء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يوقن المسلم أن الخير كله بيد الله ، وأن الضر ملازم لسنن الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه .

٢ ـ أن يتعهد المسلم نفسه بالاستغفار والتوبة ، فهما طريقان للحياة السعيدة والرزق الموفور والأجر العظيم فى الآخرة .

٣ ـ أن يصنع المرء المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فلن يضيع عند الله ـ تعالى .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات فى ختامها الحديث عن سنن الله الجارية ، وهى أن الضر ملازم لهذه السنن حين يتعرض الإنسان لأسبابه والخير كذلك ، فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته ، فلن يكشفه عنك إنسان ، إنما يكشف باتباع سنته ، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر ـ إن كانت معلومة ، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة ، وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنته ، فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه فهذا الفضل يصيب من عباده من كانوا يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسنته الماضية ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الذى يغفر ما مضى

حتى وقعت التوبة ، ويرحم عباده فيكفر عنهم سيئاتهم بتوبتهم وعملهم الصالح وعودتهم إلى الصراط المستقيم .

هذه خلاصة العقيدة كلها ، مما تضمنته السورة يكلف الرسول ﷺ أن يعلنها للناس ويقف بها فى وجه القوة والكثرة فى قوة وصرامة ؛ لأنها الدعوة وتكاليفها ، والحق وما ينبغى له من قوة ومن يقين ، ومن ثم يكون الإعلان الأخير للناس : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ فالرسول ليس موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً ، إنما هو مبلغ ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم وإلى قدر الله بهم فى النهاية ، والختام خطاب إلى الرسول ﷺ باتباع ما أمر به ، والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه .

الرسول مكلف بالدعوة وهذا الدعوة يقول عنها الشيخ أبو زهرة : « إن الدعوة ليست أمرًا هينًا ، ولكن يكتنفها المشاق والصعاب ، فعلاج النفوس ليس أمرًا قريب المنال لما يتعرض له أهل الحق من سفاهة السفهاء » .

(الآيات من ١ ـ ٥) سورة هود

هذه السورة مكية بجملتها ، وتتضمن فى آياتها الأولى عرض الحقائق الأساسية فى العقيدة الإسلامية : توحيد الدينونة لله الواحد بلا منازع ، وعبادة الله وحده بلا شريك ؛ والاعتقاد فى البعث والقيامة للحساب والجزاء على ما كان من الناس من عمل وكسب فى دار العمل والابتلاء، مع تعريف الناس بربهم الحق ، وصفاته المؤثرة فى وجودهم وفى وجود الكون من حولهم ، وبيان حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، ومقتضاها فى حياة البشرية ،وتوكيد الدينونة لله فى الآخرة كالدينونة له ـ سبحانه ـ فى الحياة الدنيا .

وتشمل الآيات الأولى التى بين أيدينا جملة من الحقائق الاعتقادية الأساسية : وهى وإثبات الوحى والرسالة ، والعبودية لله وحده بلا شريك ، جزاء الله فى الدنيا والآخرة لمن يهتدون بهداه ويتبعون منهجه للحياة ، جزاء الله فى الآخرة للمكذبين ، وعودة الجميع إلى الله ـ عصاه ـ وطائعين ، قدرته المطلقة وسلطانه غير المحدود .

وتتحدث الآيات عن القرآن الكريم الذى أحكمت آياته ، فجاءت قوية البناء،دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها ، وكل عبارة مقصودة ، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب من أحكمها ، ومن فصلها على هذا النحو الدقيق ؟ فهو الله ـ سبحانه ، وليس هو الرسول يحكم الكتاب عن حكمة ، ويفصله عن خبرة هكذا جاءت من لدنه على النحو الذى أنزل على الرسول ، لا تغيير فيها ولا تبديل .

وماذا تضمنت ؟ إنه يذكر أمهات العقيدة وأصولها : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ، فهو توحيد الدينونة والعبودية والاتباع والطاعة ، ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ فهى الرسالة ، وما تضمنته من

نذارة وبشارة ، ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ فهى العودة إلى الله من الشرك والمعصية ، إلى التوحيد والدينوية ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ فهو الجزاء للتائبين المستغفرين ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ فهو الوعيد للمتولين ، ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ فهى الرجعة إلى الله فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهى القدرة المطلقة والسلطان الشامل .

هذا هو الكتاب ، وهذه هى آيات الكتاب ؛ فهذه هى القضايا المهمة التى جاء ليقررها ويقيم عليها بناءه كله بعد تقريرها ، وما كان لدين الله أن يقوم فى الأرض ، وأن يقيم نظاماً للبشر ، قبل أن يقرر هذه القواعد التى يقوم عليها البناء.

وبعد إعلان خلاصة الكتاب الذى أحكمت آياته ، ثم فُصلت من لدن حكيم خبير ، يمضى السياق يعرض كيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات ، عندما يقدمها لهم النذير البشير ، ويصور الوضع الحسى الذى يتخذونه والحركة المادية المصاحبة له ، وهى إحناء رؤوسهم ، وثنى صدورهم للتخفى، ويكشف عن العبث فى تلك المحاولة وعلم الله يتابعهم فى أخفى أوضاعهم؛ وكل دابة فى الأرض مثلهم يشملها العلم اللطيف الدقيق .

والآيتان الكريمتان تستحضران مشهداً فريداً ترتجف له القلوب حين تتدبره وتتصوره ! ويالها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصور القلب البشرى حضور الله ـ سبحانه ـ وإحاطة علمه وقهره ؛ بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاء منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله ، ولعل نص الآية إنما يصور حالة واقعة كانت تصدر من المشركين ورسول الله ﷺ يسمعهم كلام الله ؛ فيثنون صدورهم ويطأطئون رؤوسهم ـ استخفاء من الله ـ الذى كانوا يحسون فى أعماقهم أنه قائل هذا الكلام ، وذلك كما ظهر منهم فى بعض الأحيان !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الاستغفار والتوبة طريقان إلى حياة سعيدة ، ورزق واسع ، وثواب فى الآخرة عظيم .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ مطلع على عباده لا يخفى عليه شىء من أمرهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون.

٣ ـ المعروف لا يضيع عند الله ـ تعالى ـ إذا كان صاحبه من أهل التوحيد ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ .

٤ ـ مرجع الناس إلى ربهم شاؤوا ، أم أبوا والجزاء عادل ، ولا يهلك على الله إلا هالك .

٥ ـ وجوب استشعار مراقبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى السر والعلن ، وما يترتب على ذلك من إحسان العمل .

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ
عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ
إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ
وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ
مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾
٢٢٢

معانى الكلمات :

دابة : كل شىء يدب على الأرض .

يعلم مستقرها : موقع استقرارها فى أى مكان .

ليبلوكم : ليختبركم .

أحسن عملاً : أكثر طاعة لله .

أمة معدودة : طائفة من الأيام قليلة .

حاق بهم : نزل بهم .

رحمة : غنى وصحة .

إنه ليؤوس : شديد اليأس والقنوط .

ضراء : فقر وشدة .

فخور : متفاخر على الناس بما أوتى .

إلا : لكن . **وكيل** : قائم به حافظ له .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نوقن بأن الله متكفل بالأرزاق ، وأن نثق أنها مضمونة .

٢ ـ أن نعلم أن كل شىء عند الله بمقدار ـ لا سيما الأرزاق والآجال .

٣ ـ أن نعلم أن الدنيا دار ابتلاء واختبار قبل دخول الجنة أو النار .

المحتوى التربوى :

تسوق هذه الآيات فى بدايتها صورة أخرى من صور العلم الشامل المرهوب .. هذه الدواب ـ وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة من إنسان أو حيوان وزاحفة وهامة . ما من دابة من هذه الدواب التى تملأ وجه البسيطة ، وتكمن فى باطنها ، وتختفى فى دروبها ومساربها . ما من دابة من هذه الدواب التى لا يحيط بها حصر ، ولا يكاد يلُم بها إحصاء إلا وعند الله علمها ، وعليه رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن ، من أين تجىء وأين تذهب ، وكل منها كل من أفرادها مُقيد فى هذا العلم الدقيق .

ثم يمضى السياق فى تعريف البشر بربهم ، واطلاعهم على آثار قدرته وحكمته . فى خلق السموات والأرض بنظام خاص فى أطوار أو آماد محكمة ؛ لحكمة كذلك خاصة ، وخلق السموات والأرض فى ستة أيام تحدثنا عنه فى سورة يونس والجديد هنا فى خلق السموات والأرض أى إبرازهما إلى الوجود فى شكلهما الذى انتهيا إليه . كان هناك الماء ، وكان عرش الله ـ سبحانه ـ على الماء .

يقول صاحب الظلال : « .. جهز الخالق هذه الأرض وهذه السموات بما يصلح لحياة هذا الجنس ، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات ؛ وبنى فطرته على ذات القانون الذى يحكم الكون ، وترك له جانباً اختيارياً فى حياته ، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه ، أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله له فيه ، وترك الناس يعملون ، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ، يبلوهم لا للعلم فهو يعلم ؛ ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم ، فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله .

ومن ثم يبدو هذا التكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيباً غريباً فى هذا الجو . بعدما يذكر أن الابتلاء مرتبط بتكوين السموات والأرض . أصيل فى نظام الكون وسنن الوجود ويبدو المكذبون به غير مدركين للحقائق الكبيرة فى تكوين هذا الوجود ، وهم يعجبون لهذه الحقائق وبها يفاجؤون » .

وشأنهم فى التكذيب بالبعث ، وجهلهم بارتباطه بناموس الكون ، هو شأنهم فى مسألة العذاب الدنيوى ، فهم يستعجلونه ويتساءلون عن سبب تأخيره ، إذا ما اقتضت الحكمة الأزلية أن يتأخر عنهم فترة من الوقت .

ويقول صاحب الظلال : إن عذاب الله لا تستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة ، وإذا ما أبطأ فهى حكمة ورحمة ؛ ليؤمن من يتهيأ للإيمان . وفى فترة التأجيل التى صرف الله العذاب فيها عن مشركى قريش ، كم آمن منهم من رجال حسن إسلامهم وأبلوا أحسن البلاء ، وكم ولد لكفارهم من ذرية نشأت فيها بعد فى الإسلام ، وهذه وتلك بعض الحكم الظاهرة والله يعلم ما بطن .. ولكن البشر القاصرين العجولين لا يعلمون .

وترسم الآيات صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذى يعيش فى لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلابسه ، فلا يتذكر ما مضى ، ولا يفكر فيما يلى ، فهو يؤوس من الخير ، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه . مع أنها كانت هبة من الله له ، وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء . لا يحتمل فى الشدة ويصبر ويؤمل فى رحمة الله ويرجو فرجه ، ولا يقتصد فى فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حساباً .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على النعمة كما صبروا على الشدة ، ﴿ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فى الحالين . فى الشدة بالاحتمال والصبر ، وفى النعمة بالشكر والبر ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ بما صبروا على الضراء ، وبما شكروا فى السراء .

يقول الشيخ أبو زهرة : « يدل اقتران العمل الصالح بالصبر على أن العمل الصالح يحتاج إلى تحمل بعض المشاق ، كما قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا ، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ولكن أولئك الجاهلين بحكمة الخلق وبسنن الكون ـ الذين لا يدركون حكمة إرسال الرسل من البشر فيطلبون أن يكون الرسول ملكاً أو أن يصاحبه ملك ولا يقدرون قيمة الرسالة ويطلبون أن يكون للرسول كنز ! أولئك المكذبون المعاندون الذين يلجون فى التكذيب والعناد . واجبك تجاههم أن تنذرهم ، ولا يضيق صدرك بما يقولون، وتوكل على الله، فالله هو الموكل بهم، يصرفهم كيف يشاء وفق سننه ، ويحاسبهم بعد ذلك على ما يكسبون ، ولست أنت موكلاً بكفرهم أو إيمانهم إنما أنت نذير .

يقول صاحب الأساس : « بعد أن بيّن الله ـ عز وجل ـ لنا فى هذا المقطع أن القرآن أنزل من أجل أن يُعبد الله ، وبعد أن عرّفنا الله على ذاته ، وبيّن لنا حكمة خلق السموات والأرض ، وموقف أهل الكفر والإيمان فى الشدة والرخاء ؛ يخاطب رسوله ﷺ ليثبته على التمسك بالقرآن ، فلا تثنيه مواقف الكافرين عن أخذ القرآن جميعه ؛ لأن أى إخلال فى تطبيق القرآن كله إخلال بعبادة الله ، وإخلال فى تحقيق الحكمة من خلق السموات والأرض ، ونزول عن الخلق الأعلى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ متكفل بأرزاق المخلوقات جميعها ، فعلى الإنسان أن يكون على ثقة من أن رزقه مضمون عند الله ـ تعالى ـ فلا يكتسبه إلا من حلال مع الرضا به ، والإنفاق منه فى وجوه الخير.

٢ ـ الله قدر الأرزاق والآجال والأعمال قبل خلق السموات والأرض ، فكل شىء عنده بمقدار .

٣ ـ الدنيا دار ابتلاء واختبار يظهر فيها المحسن من المسىء ؛ ليستحق كل إنسان جزاءه العادل فى الآخرة .

٤ ـ المؤمنون بغير الإيمان من طبيعتهم فيصبرون على الضراء ، ويفعلون الخير فى النعماء .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ
عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ
مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾
٢٢٣

معانى الكلمات :

افتراه : اختلقه ونسبه إلى الله كذباً .

لا يبخسون : لا يُنقص من أجورهم شيئاً .

حبط : لم يقبل .

بينة : يقين وبرهان واضح .

شاهد : يشهد للقرآن بالصدق .

مرية منه : شك من تنزيله من عند الله .

الأشهاد : الملائكة والنبيون .

يبغونها عوجاً : يطلبونها معوجة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان ولاية الله لرسوله وتسديده له وتأييده .

٢ ـ بيان ما كان عليه المشركون من عناد فى الحق ومكابرة .

٣ ـ بيان سنة الله فى خلقه وهى أن أكثرهم لا يؤمنون .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق عرض افتراءات الكافرين ، فهم هنا يقولون : إن القرآن مفترى ، فتحداهم إذن أن يفتروا عشر سور كسوره ، ويستعينوا بمن يشاؤون فى هذا الافتراء ، ولقد سبق أن تحداهم بسورة واحدة فى سورة يونس ، فما بالك التحدى بعد ذلك بعشر سور ؟

يقول **صاحب الظلال** : قال المفسرون القدامى : إن التحدى كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدى فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر سور ، وحقيقة إن ترتيب الآيات فى النزول ليس من الضرورى أن يتبع ترتيب السور ، فقد كانت تنزل

الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة فى النزول ، إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته ، وليس فى أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود ، والترتيب التحكمى فى مثل هذا لا يجوز .

ولقد حاول السيد رشيد رضا فى تفسير المنار أن يجد لهذا العدد ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ علة ، فأجهد نفسه طويلاً ـ رحمة الله عليه ـ ليقول : إن المقصود بالتحدى هنا هو القصص القرآنى ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التى كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشراً ، فتحداهم بعشر ، لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر سور نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج المتحدى إلى عشر سور كالتى ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكى .

ونحسب ـ والله أعلم ـ أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد ، وأن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ؛ لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور دون ترتيب زمنى ، لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شىء من القرآن ـ كله أو بعضه أو سورة منه على السواء ، فالتحدى كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره .

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ ولم يقدروا على افتراء عشر سور ، فهو وحده القادر على أن ينزله ، وعلم الله وحده هو الكفيل بأن ينزله على النحو الذى نزل به ، متضمناً ما تضمنه من دلائل العلم الشامل بسنن الكون وأحوال البشر ، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يصلح لهم فى نفوسهم وفى معاشهم .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة ، ويواجه مثل تلك المواقف التى تنزل فيها ليواجهها ، وليوجهها ، والذين يتلمسون معانى القرآن ودلالاته ، وهم قاعدون ، يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئًا من هذه القعدة الباردة الساكنة بعيدًا عن المعركة ، وبعيدًا عن الحركة ، إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبدًا ، وإن سره لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله والدينونة للطاغوت من دون الله » .

ويعقب على هذا التقرير الذى لا مفر من الإقرار به بسؤال لا يحتمل إلا جواباً واحداً عند غير المكابرين ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ بعد هذا التحدى والعجز ودلالته التى لاسبيل إلى مواجهتها بغير التسليم ؟ ولكنهم ظلوا بعدها يكابرون .

لقد كان الحق واضحاً ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به فى هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان ؛ لهذا يعقب السياق بقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية ؛ ويقول صاحب

الظلال : إن للجهد فى هذه الأرض ثمرته سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة ، فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها ، فإنه يلقى نتيجة عمله فى هذه الدنيا ؛ ويتمتع بها كما يريد ـ فى أجل محدود ـ ولكن ليس له فى الآخرة إلا النار ؛ لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً ، ولم يحسب لها حساباً ، فكل عمل الدنيا يلقاه فى الدنيا ، ولكنه باطل فى الآخرة لا يُقام له فيها وزن وحابط ، وهى صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم فى الدنيا وهو مؤدٍ إلى الهلاك !

بعد ذلك يلتفت السياق إلى موقف المشركين من رسول الله ﷺ وما جاءه من الحق ، وإلى هذا القرآن الذى يشهد له بأنه على بينة من ربه ، وأنه مرسل من عنده ؛ كما يشهد له كتاب موسى من قبله ، ويعقد بين هؤلاء المشركين وبين المؤمنين موازنة فى صورة حسية مشهودة ، تصور الفارق البعيد بين الفريقين فى طبيعتهما ، وفى موقفهما وحالهما فى الدنيا والآخرة سواء .

ويمضى السياق يواجه الذين يكفرون به ، ويزعمون أنه مفترى من دون الله ، ويكذبون على الله ـ سبحانه ـ وعلى رسوله ﷺ وذلك فى مشهد من مشاهد القيامة يعرض فيه الذين يفترون على الله الكذب سواء بقولهم : إن الله لم ينزل هذا الكتاب ، أو بادعائهم شركاء لله ، هؤلاء يعرضون فى مشهد يوم القيامة للتشهير بهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، وفى الجانب الآخر المؤمنون المطمئنون إلى ربهم وما ينتظرهم من نعيم ، والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون ، أو هم الناس أجمعون ، فهو الخزى والتشهير ـ إذن ـ فى ساحة العرض الحاشدة ! أو هو قرار الله سبحانه فى شأنهم إلى جانب ذلك الخزى والتشهير على رؤوس الأشهاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أهل الكفر والرياء يُعطون بحسناتهم فى الدنيا من سعة الرزق ، وطيب العيش ، وليس لهم حظ فى الآخرة ، وكذلك كل من كانت الدنيا همه ونيته ومطلبه ، جازاه الله بحسناته فيها ، ثم لا يكون له حسنة يُعطى بها جزاء فى الآخرة .

٢ ـ كل من كذب بالقرآن أو بشىء منه ـ من جميع أهل الأرض ممن بلغه القرآن من بنى آدم ـ فالنار موعده وبئس المصير .

٣ ـ الكافر لا ينتفع من عمله فى الدنيا ـ ولو كان صالحاً ، والخسران لازم له .

٤ ـ بيان سنة الله فى الناس وهى أن أكثرهم لا يؤمنون .

أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ
ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ
﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا
مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ
ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً
مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ۚ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾
٢٢٤

معانى الكلمات :

معجزين : فائتين من عذاب الله .

أولياء : أنصار .

لا جرم : حقا أو لا محالة .

أخبتوا إلى ربهم : اطمأنوا إلى وعده .

الملأ : الأشراف والسادة .

بادى الرأى : ظاهر الرأى من غير تعمق وتثبت .

أرأيتم : أخبرونى .

فعميت عليكم : أخفيت عليكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الكافرين والكاذبين ليسوا بمعجزين لله فى الأرض ، إنما يمهلهم الله ليوم الحساب .

٢ ـ أن نعرف المفهوم الحقيقى للسعادة والخسارة ، فنعمل للجنة ونحذر من النار .

٣ ـ أن نوقن بأن دعوة كل الرسل واحدة ومتواصلة فكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن أولئك الظالمين الذين يفترون الكذب على ربهم ؛ ليضلوا ويصدوا عن سبيل الله : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ فلا يريدون الاستقامة ، إنما يريدونها عوجاً والتواء وانحرافاً، وهؤلاء لم يكن أمرهم معجزاً لله ، ولو شاء لأخذهم بالعذاب فى الدنيا : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، ينصرونهم أو يمنعونهم من الله ، إنما تركهم لعذاب الآخرة ؛ ليستوفوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ فقد عاشوا معطلى المدارك مغلقى البصائر ؛ كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ .

يقول صاحب **الظلال** : وهى أفدح الخسارة، فالذى يخسر نفسه لا يفيد شيئاً مما كسب غيرها، وأولئك خسروا أنفسهم فأضاعوها فى الدنيا ، لم يحسوا بكرامتهم الآدمية التى تتمثل فى الارتفاع عن الدينونة لغير الله من العبيد . كما تتمثل فى الارتفاع عن الحياة الدنيا والتطلع ـ مع المتاع بها ـ إلى ما هو أرقى وأسمى ، وذلك حين كفروا بالآخرة، وحين كذبوا على ربهم غير متوقعين لقاءه ، وخسروا أنفسهم فى الآخرة بهذا الخزى الذى ينالهم ، وبهذا العذاب الذى ينتظرهم ، وهؤلاء لا تعدل خسارتهم أى خسارة وقد أضاعوا أنفسهم دنيا وأخرى ، وفى الجانب الآخر أهل الإيمان والعمل الصالح ، المطمئنون إلى ربهم الواثقون به الساكنون إليه لا يشكون ولا يقلقون ، ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ فالقضية فى وضعها هذا لا تحتاج إلى أكثر من التذكر ، فهى بديهية لا تقتضى التفكير .

وينتقل السياق إلى الخط القصصى فى سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بإبراهيم فى الطريق إلى لوط ، ثم شعيب ، ثم إشارة إلى موسى ، ويشير إلى الخط التاريخى ؛ لأنه يذكر التالين بمصير السالفين على التوالى بهذا الترتيب ونبدأ بقصة نوح مع قومه . أول هذا القصص فى السياق ، وأوله فى التاريخ ، ونجد أن الألفاظ تكاد تكون ذاتها التى أرسل بها محمد ﷺ والتى تضمنها الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ؛ وهذه المقاربة فى السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة .

ودعاهم فصدوا عن سبيل الله ؛ واسترذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية ، ويعلق **ابن كثير** على ردّ الكافرين الوارد أمامنا فى الآيات قائلاً : هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق فى نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالباً إنما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٣) .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ـ عن صفات النبى ﷺ قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ،فقال هرقل : هم أتباع الرسل ، وقولهم ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ ليس بمذمة ولا عيب ؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروى ولا للفكر مجال ، بل لابد من اتباع الحق ـ والحالة هذه ـ لكل ذى ذكاء ، بل لا يفكر ههنا إلا غبى أو عيى والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، إنما جاؤوا بأمر جلّى واضح ، وقد جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم » أى ما تردّد ولا تروى ؛ لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع ، وقولهم : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن

فَضْلٍ ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمى عن الحق ، لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم فى ريبهم يترددّون ، فى ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكاذبون الأرذلون ، وفى الآخرة هم الأخسرون .

وعن المسبب فى معظم أتباع الرسل كانوا من الفقراء يقول صاحب الظلال : « لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التى تحرر الناس من العبودية للكبراء ، ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة ، ولأنهم لا يخافون العقيدة فى الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير ، واستعبادها للخرافات الوثنية فى شتى صورها ، وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة للبشر » .

يتلقى نوح عليه السلام الاتهام والإعراض والاستكبار ، فى سماحة النبى وفى استعلائه وفى ثقته بالحق الذى جاء به، واطمئنانه إلى ربه الذى أرسله ، وفى وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه فى شعوره ، فلا يشتم كما شتموا ، ولا يتهم كما اتهموا ، ولا يدعى كما ادعوا ، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير حقيقته ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها .

﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ فى سماحة ومودة ، بنداتهم ونسبتهم إليه ، ونسبة نفسه إليهم ، إنكم تعترضون فتقولون : ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بربى ، بيِّن فى نفس مستيقن فى شعورى ، وهى خاصية لم توهبوها . وإن كان الله آتانى رحمة من عنده باختيارى للرسالة ، أو آتانى من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة .

وهذه رحمة ـ ولا شك عظيمة ـ ما رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية؛ لأنكم غير متهيئين لإدراكها إنه ما كان لى وما أنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الكافر ميت موتاً معنوياً ، فلذا هو لا يسمع ولا يبصر ، والمسلم حىٌّ فلذا هو يسمع الحق ويبصره .

٢ ـ الخسارة الحقيقية هى خسارة الآخرة بدخول النار .

٣ ـ السعادة الحقيقية هى الفوز برضا الله ـ عز وجل ـ ودخول الجنة ، ورؤية الله ـ عز وجل .

٤ ـ دعوة الرسل واحدة من لدن آدم حتى رسول الله ﷺ وهى دعوة العباد لعبادة الله الواحد .

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ
قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا
لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ
قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
٢٢٥

معانى الكلمات :

ينصرنى من الله : يمنعنى من عذابه .

خزائن الله : خزائن رزقه وماله .

تزدرى أعينكم : تستحقرهم .

ما أنتم بمعجزين : ما أنتم بفائتين من عذاب الله بالهرب.

فعلىّ إجرامى : فعلىّ عقاب ذنوبى .

فلا تبتئس : فلا تحزن .

يغويكم : يضلكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن موازين الله فى المفاضلة بين خلقه هى التقوى والعمل الصالح .

٢ ـ أن نتجرد فى عرض الدعوة بدون زخرف أو طلاء يصورها فى غير حقيقتها .

٣ ـ أن نوقن بأن إرادة الله قبل كل إرادة ، وإذا انتهى القضاء امتنع الدعاء .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات عرض قصة نوح عليه السلام فيقول لهم : يا قوم إن الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا ، وليس لى عند الناس إلا أن يؤمنوا ، إننى لا أطلب مالاً على الدعوة حتى أكون حفياً بالأثرياء غير حفى بالفقراء ؛ فالناس كلهم عندى سواء . ومن يستغن عن مال الناس يتساو عنده الفقراء والأغنياء .

على الداعية أن ينظر لقصة نوح عليه السلام ويتدبرها فسيجد أن عليه :

ـ مكاشفة المدعوين بأن هذه الدعوة ليست مغنما ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ .

ـ تصحيح الفهم لدى المدعوين أن هذه ليست لتشريف نفسه ـ فقد شرفه الله باتخاذه رسولا ـ وأنها ليست لجلب مغانم له ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾.

ـ رد الحساب والجزاء لله فى الدنيا والآخرة ﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾.

ـ حسن الدعوة وتخير الألفاظ مع المدعوين وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ فنسب الإجرام للنبى على سبيل المشاكلة ليستميل قلوب المدعوين .

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ، فكانوا يستنكفون أن يلتقوا عنده بالأراذل ، أو أن يكونوا وإياهم على طريق واحد !لقد جهلوا القيم الحقيقية التى يُقدر بها الناس فى ميزان الله ، وجهلوا كذلك أن مرد الناس كلهم إلى الله ، والله ـ عز وجل ـ رب الفقراء والأغنياء ورب الضعفاء والأقوياء . هناك الله يقوِّم الناس بقيم أخرى ، ويزنهم بميزان واحد هو الإيمان ، فهؤلاء المؤمنون فى حماية الله ورعايته .

ويسألهم من يعصمنى من الله إن أنا أخللت بموازينه ، وبغيت على المؤمنين من عباده ـ وهم أكرم عليه ـ وأقررت القيم الأرضية الزائفة التى أرسلنى الله لأعدُلها لا لأتبعها .

ثم يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء ، وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة ، ويقدمها فى معرض التذكير ؛ ليقرر لهم القيم الحقيقية ، ويزدرى أمامهم القيم الظاهرية فنفى عن نفسه ادعاء الثراء أو القدرة على الإثراء ، ونفى معرفته بالغيب فلا يعلمه إلا الله ، ونفى كونه ملكاً وأثبت صفته البشرية الإنسانية .

وهكذا ينفى نوح عليه السلام عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه فى الرسول والرسالة ، ويردهم فى نصاعة الحق وقوته ، مع سماحة القول ورده إلى الحقيقة المجردة ، فيعطى أصحاب الدعوة فى أجيالها جميعاً ، نموذجاً للداعية ، ودرساً فى مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ، ودون مجاملة لهم ، مع المودة التى لا تنحنى معها الرؤوس !

وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة فأخذتهم العزة بالإثم ، فإذا هم يتركون الجدل إلى التحدى فقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ، أما نوح عليه السلام فلا يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم ، ولا يقعده عن بيان الحق لهم وإرشادهم فهو ليس سوى رسول ، وليس عليه إلا البلاغ ، أما العذاب فمن أمر الله ، وسنته هى التى تنفذ ، وما يملك هو أن يردها أو يحولها .

فأخبرهم أنه إذا كانت سنة الله تقتضى أن تهلكوا بغوايتكم ، فإنها ستمضى ، مهما بذلت لكم من النصح ، فإنه لن ينفعكم ، وما أنتم بمعجزين لله عن أن ينالكم ما يقدر لكم ، فأنتم ـ دائما ـ فى قبضته ، وهو المدبر والمقدر لأمركم كله ، ولا مفر لكم من لقائه ، وحسابه وجزائه .

وعند هذا المقطع من قصة نوح ، يلتفت السياق إلى استقبال مشركى قريش لمثل هذه القصة التى تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن الرسول ﷺ يفترى هذا القصص فيرد هذا القول قبل أن يمضى فى استكمال قصة نوح .

ثم يمضى السياق فى قصة نوح ؛ يعرض مشهداً ثانياً ـ مشهد نوح يتلقى وحى ربه وأمره ، فقد انتهى الإنذار ، وانتهت الدعوة ، وانتهى الجدل ، فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها استعداد ؛ هكذا أوحى إلى نوح ، وهو أعلم بعباده ، وأعلم بالممكن والممتنع ، فلم يبق مجال للمضى فى دعوة لا تفيد ، ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحد واستهزاء، فما هم بضاريك بشىء ، ولا تدعو لهدايتهم فإنهم لا خير فيهم ، دع أمرهم فقد انتهى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم ، فلا تخاطبنى فيهم ولا دعاء لهدايتهم ولا دعاء عليهم ، والمفهوم أن اليأس كان بعد هذا الوحى ـ فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء .

يقول القاسمى فى محاسن التأويل : بمناسبة قوله ـ تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ أى بعد مبالغته فى بذل الوسع فى النصح مع عدم نفعه إياهم ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أى لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أى من التكذيب والإيذاء فقد انتهى أمرهم ، وحان وقت الانتقام منهم ، وقيل : المعنى لا تبتئس ، أى لإهلاكهم شفقة عليهم ؛ لأنهم إنما يهلكون بما كانوا يفعلون من معاندتهم معك ، فليسوا أهلاً لشفقتك ولا لرحمتنا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا .

١ ـ كُرْه الشىء يجعل صاحبه لا يراه ولا يسمعه ولا يفهم ما يقال له فيه .

٢ ـ كراهية أخذ أجر على ممارسة الدعوة والتربية والتعليم الدينى .

٣ ـ علم الغيب استأثر الله ـ تعالى ـ به دون سائر خلقه إلا من علمه الله شيئاً منه فإنه يعلمه .

٤ ـ حرمة غمط الناس وازدرائهم والسخرية منهم .

٥ ـ إرادة الله ـ تعالى ـ قبل كل إرادة ، وما شاءه الله يكون وما لم يشأه لم يكن .

٦ ـ تقرير مبدأ تحمل كل إنسان مسؤولية عمله ، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى .

٧ ـ كراهية الحزن والأسى على ما يقوم به أهل الباطل والشر والفساد .

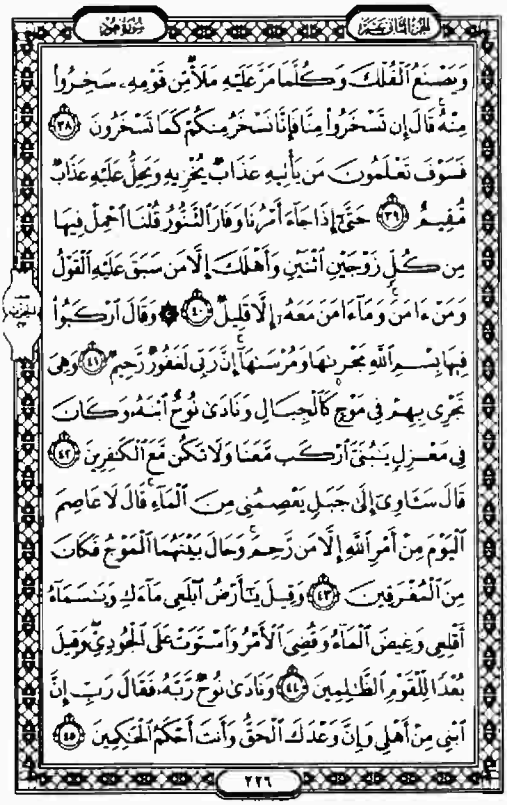
وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟
مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟
فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ
تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ
أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾
٢٢٦

معانى الكلمات :

ملأ : جماعة .

سخروا منه : استهزؤوا به .

يحل : ينزل .

فار التنور : نبع الماء بشدة من فرن الخبز المعروف .

سآوى : سألتجئ .

لا عاصم : لا مانع ولا حافظ .

أقلعى : أمسكى عن إنزال المطر .

غيض الماء : نقص وذهب .

استوت على الجودى : استقرت على جبل .

بُعداً : هلاكاً وسحقاً .

أحكم الحاكمين : أعلمهم وأعدلهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن قدرة الله لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٢ ـ أن نعلم أن الإنسان لا ينجيه من عذاب الله إلا إيمانه وعمله الصالح .

٣ ـ أن نطيع الوالدين ، فعقوقهما سبب الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

المحتوى التربوى :

تتوالى مشاهد القصة ، وتتحدث الآيات هنا عن مشهد نوح عليه السلام وهو يصنع الفلك ، وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم ، **ويقول صاحب الظلال** : والتعبير بالمضارع فعل الحاضر، هو الذى يعطى المشهد حيويته وجدته ، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير يصنع الفلك.ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون من الرجل الذى كان يقول لهم: إنه رسول ويدعوهم ، ويجادلهم فيطيل جدالهم ؛ ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً ، إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ولا يعلمون ما وراءه من وحى وأمر . شأنهم ـ دائماً ـ فى

إدراك الظواهر ، فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم فى اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية .

ويأتى مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ وللمفسرين هنا أقوال فبعضهم قال : المراد بالتنّور الإشعار باشتداد الأمر وصعوبته ففى الكلام كناية ، وبعضهم قال : المراد به تنّور خبز بعينه ، وبعضهم قال : المراد به وجه الأرض ، والظاهر أنها علامة لنوح من الله ، فإذا كان الأمر كذلك فهو تّنور بعينه .

وأمره الله أن يحمل فى السفينة من كل زوجين اثنين ، وأهله إلا من سبق القول عليه أنه من أهل النار ، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر بتقديره وإرادته ، جلّ خالق العباد عن أن يقع فى الكون خلاف ما أراد ، ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أى واحمل مع المؤمنين من أهلك من آمن من غيرهم ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أى نزر يسير مع طول المدة والمُقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما سنرى فى سورة « العنكبوت » .

وليس هنالك من رواية عن رسولنا ﷺ فى تحديد عدد من ركب فى السفينة ، ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ ، أى مسّمين الله ، أو قائلين : بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها ، أى : بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسُّوها .

ثم يأتى المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان : فإذا السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال ، وفى هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح ، فإذا أحد أبنائه فى معزل عنهم وليس معهم ، وتستيقظ فى كيانه الأبوة الملهوفة ، ويهتف بالولد الشارد : ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، **وكما يقول صاحب الظلال** : ولكن البنوة العاقة لا تحفل بالأبوة الملهوفة ، والفتوة المفردة لا تقدر مدى الهول الشامل : ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ ثم ها هى ذى الأبوة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر ترسل النداء الأخير : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ .

قال **القاسمى** : فى محاسن التأويل : « أى لا مانع اليوم من بلائه ، وهو الطوفان ، إلا الراحم وهو الله تعالى . أو لا عاصم إلا مكان من رحم وهم المؤمنون ، يعنى السفينة ، أو لاعاصم ، بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله » فلا جبال ولا مخابئ ولا حام ولا واقٍ إلا من رحم الله ، وفى لحظة تتغير صفحة المشهد ، فها هو ذا الموج الغامر يبلغ كل شىء : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ .

وترسم الآيات أخيراً نهاية قصة الطوفان بأمر الله للأرض أن تنشق وتبتلع ماءها وتتشربه وللسماء أن تمسك مطرها ، ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ أى شرع فى النقص ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أى أنجز ما وعد

الله نوحاً من إهلاك قومه ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وفى ذلك إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض ، ولم يبق ممن كفر بالله ديّار ، أمر ـ تعالى ـ الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر فنضب الماء ، وقضى الله أمره بإنجاء من نجا وإهلاك من هلك .

إن قضية الولاء لله ، والبراء من كل صور الشرك لا يناقض البشرية وما فيها من عواطف وخلجات بشرية ، فهذا نوح الشديد الذى قال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (نوح : ٢٦) .

هذا نوح يطلب النجاة لابنه ، وتأمل ذلك وقوله تعالى عنه : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (نوح : ٢٧) فهو هنا يعلل سبب الدعاء عليهم بأنهم لا يتناسلون إلا كفارا ، ويحتمل أنه دعا بهذا الدعاء بعد أن أخبره الله أن ابنه ليس من أهله الناجين ، لذا فقد دعا لمن آمن أهله ولمن دخل بيته ، وذلك فى قول الله تعالى : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (نوح : ٢٨) .

وحملت شفقة الأبوة ، وعطف الرحم والقرابة نوحًا عليه السلام أن يطلب نجاة ابنه ، لشدة تعلقه به، واهتمامه بأمره وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة الإلهية وحسن السؤال فقال : ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ ، ولم يقل : لا تخلف وعدك بإنجاء أهلى ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحم النسبية ؛ وغفل لفرط التأسف على ابنه ، عن استثنائه ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف به بالاسترحام وعرض بقوله : ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أى أنت العالم العادل والحكيم الذى لا يخلف وعده .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قدرة الله لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء، وكل شىء مسخر بأمر الله ومشيته .

٢ ـ لا ينفع الإنسان عند الله ـ تعالى ـ ولا ينجيه من عذابه إلا إيمانه وعمله الصالح ، فهذا ابن نوح الذى لم يؤمن قد أغرقه مع المغرقين ، وتلك امرأته الكافرة أغرقت كسائر الكافرين .

٣ ـ من السنة التسمية فى ابتداء الأمور ، وعند ركوب السفينة والسيارة وسائر وسائل المواصلات .

٤ ـ عقوق الوالدين كثيراً ما يسبب الهلاك فى الدنيا ، أما عذاب الآخرة فهو لازم له .

٥ ـ الآيات تشير إلى عظمة الرب ـ تعالى ـ وإطاعة كل الخلق أمره حتى الأرض والسماء .

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ
وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ
أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

٢٢٧

معانى الكلمات :

اهبط : انزل من السفينة .

بركات : خيرات ثابتة نامية .

أنباء : أخبار .

مفترون : كاذبون على الله .

فطرنى : خلقنى وأبدعنى .

السماء : المطر .

مدراراً : غزيراً .

بينة : برهان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حقيقة السنن الجارية التى لا تتخلف ولا تحابى ولا تحيد ، والعاقبة للمتقين .

٢ ـ أن ندرك أهمية الصبر وكونه من أسباب النصر .

٣ ـ أن نداوم على الاستغفار والتوبة فهما من أسباب تيسير الرزق .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يأتى الرد نوحاً بالحقيقة التى غفل عنها ، فالأهل ـ عند الله وفى دينه وميزانه ـ ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة ، وهذا الولد لم يكن مؤمناً ، فليس إذن من أهله وهو النبى المؤمن جاءه الرد هكذا فى قوة وتقرير وتوكيد ؛ وفيها يشبه التقريع والتأنيب والتهديد ، لأن نوحاً دعا دعاء من يستنجز وعداً لا يراه قد تحقق . كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد، فقال له : إنى أعظك خشية أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط ، أو حقيقة وعد الله وتأويله ، فوعد الله قد أُول وتحقق ، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق .

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن ويخشى أن يكون قد زل فى حق ربه ، فيلجأ إليه ، يعوذ به ، ويطلب غفرانه ورحمته ، وأدركت رحمة الله نوحاً ، تطمئن قلبه ، وتباركه هو والصالح من نسله ، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم ، وكانت خاتمة المطاف : النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من

ذريته ؛ والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم العذاب الأليم .. ذات البشرى وذات الوعيد ، اللذان مرا فى مقدمة السورة ،فجاء القصص ليترجمها فى الواقع المشهود .

ومن ثم يجىء التعقيب ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فيتحقق هذا التعقيب ـ **كما يقول صاحب الظلال** : من أهداف القصص القرآنى فى هذه السورة :

* حقيقة الوحى التى ينكرها المشركون ، فهذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه النبى ، وما كان معلوماً لقومه ، ولا متداولاً فى محيطه . إنما هو الوحى من لدن حكيم خبير .

* وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبى البشر الثانى ، فهى هى ، والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير .

* وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبينات التى لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة فى جيل .

* وحقيقة تحقق البشرى والوعيد ، كما يبشر النبى وينذر ، وهذا شاهد من التاريخ .

* وحقيقة السنن الجارية التى لا تتخلف ولا تحابى ولا تحيد : ﴿ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم الناجون وهم المستخلفون .

* وحقيقة الرابطة التى تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل ، إنها العقيدة الواحدة التى تربط المؤمنين كلهم فى الإيمان بإله واحد ورب واحد يلتقون فى الدينونة له بلا منازع ولا شريك.

المثل الذى ضرب فى هذه السورة وهو نوح وابنه ليس هو المثل الوحيد بل قد ضرب القرآن أمثلة أخرى :

ـ وهى إبراهيم مع أبيه .

ـ إبراهيم مع قومه .

ـ نوح مع زوجته ولوط مع زوجته .

ـ امرأة فرعون مع زوجها .

ـ أصحاب الكهف مع أقوامهم .

وغير ذلك من الأمثلة يتعلو عقيدة الولاء والبراء وذلك يجب أن يكون ديدن المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة : ٢٢) .

ومضى قوم نوح فى التاريخ . الأكثرون والمكذبون طواهم الطوفان وطواهم التاريخ؛ واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء ، والناجون استخلفوا فى الأرض تحقيقاً لسنة الله ووعده : ﴿ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . ولقد كان وعد الله لنوح : ﴿ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ ، فلما دارت عجلة الزمن ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله ، وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا فى البلاد ـ ومن بعدهم ثمود ـ ممن حقت عليهم كلمة الله : ﴿ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ويعرض السياق قصة عاد الذين كانوا يسكنون الأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية ، أرسل الله إليهم أخاهم هوداً كما أرسل نوحاً إلى قومه ، وبنفس التودد ، والتذكير بالأواصر التى تجمعهم نصحهم كما نصح نوح قومه ، فالرائد لا يكذب أهله ، والناصح لا يغش قومه ، وكانوا قد انحرفوا ـ كما أسلفنا ـ عن عبادة الله الواحد التى هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة .

لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية ، فإذا هو يدعوهم تلك الدعوة التى جاء بها كل رسول ، ووضح لهم أنها دعوة خالصة ونصيحة ممحضة ، فليس له من ورائها هدف، وما يطلب على النصح والهداية أجراً ، إنما أجره على الله الذى خلقه فهو به كفيل .

ووجههم إلى الاستغفار والتوبة ، ويكرر السياق التعبير ذاته الذى ورد فى أول السورة على لسان خاتم الأنبياء ، ويعدهم هود ويحذرهم ما وعدهم محمد ﷺ وحذرهم بعد ذلك بآلاف السنين فنصحهم أن يستغفروا الله مما هم فيه من المعاصى ، وأرشدهم إلى التوبة حتى ينزل عليهم المطر مدراراً ويعطيهم أكثر من ذلك فقال لهم : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : تلك كانت دعوة هود ـ ويبدو أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة ربما لأن الطوفان كان قريباً منهم ، وكان فى ذاكرة القوم وعلى لسانهم ، وقد ذكرهم به فى سورة أخرى ـ فأما قومه فظنوا به الظنون : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من إعجاز القرآن الكريم إخباره بالغيوب السالفة ، وقصص الأولين التى لم يكن للرسول ﷺ ولا لأحد من قومه علم بها قبل نزول هذا القرآن .

٢ ـ الصبر من أسباب النصر .

٣ ـ من وظيفة الرسل: النصح والبلاغ من الله ـ تعالى ـ إلى الناس، ابتغاء ثواب الله ورضوانه.

٤ ـ الاستغفار يكفر الذنوب السابقة ، والتوبة والرجوع إلى طاعة الله تكف عن الذنوب مستقبلا ، ومن اتصف بهاتين الصفتين (الاستغفار والتوبة) يسر الله له رزقه ، وسهل عليه أمره ، وحفظ شأنه .

إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا
مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۚ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن
نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾
٢٢٨

معانى الكلمات :

اعتراك : أصابك .

بسوء : بجنون .

فكيدونى : فاحتالوا فى كيدى .

لا تنظرون : لا تمهلونى .

آخذ بناصيتها : مالكها وقادر عليها .

حفيظ : رقيب مسيطر .

جبار : متعاظم متكبر .

عنيد : طاغ معاند للحق .

بعداً لعاد : هلاكاً وسحقاً لهم .

مريب : موقع فى القلق والشك .

الهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن جميع الرسل دعوتهم واحدة وهى التوحيد ، ودينهم واحد وهو الإسلام .

٢ ـ أن نعلم أن الإيمان أساس الأعمال الصالحة .

٣ ـ أن نداوم على الاستغفار والتوبة فهما سبيل الاستقامة على أوامر الله ـ عز وجل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات وبعد أن أعلن قوم هود أنهم لن يستجيبوا له ولن يصدقوه ، واتهموه بالجنون لم يبق لهود عليه السلام إلا التحدى ، وإلا التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه ، وإلا الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين،وإلا المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم ـ إن أصروا على التكذيب.

ويعلن فى انتفاضة ثائرة التبرؤ من القوم ، وقد كان منهم وكان أخاهم . وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً ، وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد انبتت بينهما وشيجة العقيدة، وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم ، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم فى وجوههم ، كى لا تبقى فى أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم .

وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه ، ومع ثقة الإيمان واطمئنانه ! ثم يخبرهم فى جلاء ووضوح أنهم مهما أنكروا وكذبوا ، فحقيقة ربوبية الله له ولهم قائمة ، فالله رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة ولا توجد دابة على هذه الأرض إلا وهو آخذ بناصيتها، بما فيها الدواب من الناس، قاهر وغالب ومهيمن عليهم فى قوة واستقامة وتصميم .

وهذه الحقيقة التى يجدها صاحب الدعوة فى نفسه ، لا تدع فى قلبه مجالاً للشك فى عاقبة أمره ؛ ولا مجالاً للتردد عن المضى فى طريقه ، وتلك هى حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب الصفوة المؤمنة أبداً ؛ وعند هذا الحد من التحدى بقوة الله، وإبراز هذه القوة فى صورتها القاهرة الحاسمة، يأخذ هود فى الإنذار والوعيد .

فيخبرهم أنه أدى واجب الله عليه فى الإبلاغ ، وها هو ينفض يده من أمرهم ليواجهوا قوة الله ـ عز وجل ،وما لهم به من قوة، وذهابهم لا يترك فى كون الله فراغاً ولا نقصاً والله ـ عز وجل ـ يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع ، ويقوم عليهم فلا يفلتون ولا يعجزون الله هرباً وكانت هذه هى الكلمات الفاصلة ؛ وانتهى معهم الجدل والكلام ليحق الوعيد والإنذار .

ولما جاء أمر الله بتحقيق الوعيد ، وإهلاك قوم هود ، نجيناً هوداً والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا ، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم ، واستثنتهم من أن يصيبهم بسوء وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل بالمكذبين . ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم ، يتناسق مع الجو ، ومع القوم الغلاظ العتاة .

والآن وقد هلكت عاد ، يُشار إلى مصرعها إشارة البعد ، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب، وتشيع باللعنة والطرد فى تقرير وتكرار وتوكيد ، وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد .. كانت هى قضية الحاكمية والاتباع ، قضية المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين ! والإسلام هو طاعة أمر الرسل ـ لأنه أمر الله ، ومعصية أمر الجبارين . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان .. فى كل رسالة وعلى يد كل رسول .

يقول صاحب الظلال : « الواقع أنه لوكانت حقيقة العبادة هى مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب من الرسل والرسالات ؛ وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التى بذلها الرسول صلوات الله وسلامه عليهم ، وما استحقت كل هذه الآلام التى تعرض على مدار الزمان ! إنما الذى استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد ، وردهم إلى الدينونة لله وحده فى كل أمر .

ولقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد .. هكذا مشيعين باللعنة فى الدنيا وفى الآخرة .

ومرة أخرى نتواصل مع السياق وهو يعرض قصة جديدة للجاهلية تعقب الإسلام ، والشرك يعقب التوحيد ـ فثمود كعاد هم من ذرارى المسلمين الذين نجوا فى السفينة مع نوح ـ ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ؛ حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد .

ثم نجد أن القوم يواجهون الآية الخارقة التى طلبوها ، لا بالإيمان والتصديق ، ولكن بالجحود وعقر الناقة !

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التى ترى فى الرشد ضلالاً ؛ وفى الحق عجيبة لا تكاد تتصورها ! فصالح الذى كان مرجواً فى قومه ، لصلاحه ولرجاحة عقله وخلقه ، يقف منه قومه موقف اليائس منه ، المفجوع فيه ! لماذا ؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده على غير ما ورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره .

ويقول صاحب الظلال ـ معلقاً : إن القلب البشرى حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد فىٌ ضلاله وشروده ، حتى إن الحق البسيط الفطرى المنطقى ليبدو عنده عجيبة العجائب التى يعجز عن تصورها ، بينما هو يستسيغ الانحراف الذى لا يستند إلى منطق فطرى أو منطق عقلى على الإطلاق !

وصالح ﷺ يناديهم بما فى نشأتهم ووجودهم فى الأرض من دليل فطرى منطقى لا يملكون له رداً ، وهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشؤوا أنفسهم ، ولا أنهم هم كفلوا لأنفسهم البقاء ، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التى يستمتعون بها فى الأرض .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ دعوة الرسل جميعاً واحدة (هى عقيدة التوحيد) ، ودينهم جميعاً واحد هو الإسلام .

٢ ـ الإيمان هو أساس قبول الأعمال الصالحة .

٣ ـ حسن التوكل على الله ؛ لأن كل الخلق تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه .

٤ ـ تقديم الاستغفار على التوبة فى الآيات سره أن المرء لا يقلع عن ذنبه حتى يعترف به .

٥ ـ وحدة الوسيلة والغاية عند كافة الرسل فالوسيلة عبادة الله وحده ، والغاية رضا الله والجنة .

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟
سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

٢٢٩

معانى الكلمات :

أرأيتم : أخبرونى .

بينة : يقين وبرهان .

تخسير : خسران إن عصيته .

عقروها : ذبحوها .

الصيحة : صوت مهلك من السماء .

جاثمين : هامدين .

بعجل حنيذ : بعجل مشوى .

أوجس : شعر بالخوف .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نأخذ العبرّة والعظة من ثبات الأنبياء على الحق وصبرهم على إيذاء أقوامهم .

٢ ـ أن نتعلم آداب استقبال الضيف ووجوب إكرامه من سيدنا إبراهيم .

٣ ـ أن نوقن أن مشيئة الله وقدرته لا تقيدها نواميس ولا تبدلها .

المحتوى التربوى :

يتواصل السياق مع أحداث قصة صالح ﷺ وهو يقول لقومه كما قال جده نوح : يا قوم : ماذا ترون إن كنت أجد فى نفسى حقيقة ربى واضحة بينة ، تجعلنى على يقين من أن هذا هو الطريق ؟ وآتانى منه رحمة فاختارنى لرسالته وأمدنى بالخصائص التى تؤهلنى لها ، فمن ينصرنى من الله إن أنا عصيت فقصرت فى إبلاغكم دعوته ، احتفاظا برجائكم فىّ ؟ أفنافعى هذا الرجاء وناصرى من الله ؟ كلا : ما تزيدوننى إلا خسارة على خسارة .. غضب الله وحرمانى شرف الرسالة وخزى الدنيا وعذاب الآخرة .

ويمضى السياق ولا يذكر صفة لهذه الناقة التى أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة ، ولكن فى إضافتها لله ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ ، وفى تخصيصها لهم : ﴿ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ ما يشير إلى أنها

كانت ذات صفة خاصة مميزة ، يعلمون بها أنها آية لهم من الله ولكنهم عقروها ، فضربوا قوائمها بالسيف على هذا النحو . وهذا دليل على فساد قلوبهم واستهتارهم ، لذا جاءهم أمر الله وهو الإنذار أو الهلاك ـ فلما جاء موعد تحقيق الأمر ـ نجى الله صالحاً والذين آمنوا معه برحمة من الله خاصة ومباشرة ، نُجىّ من الموت ومن خزى ذلك اليوم ، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية ، وكان مشهدهم جاثمين فى دورهم بعد الصاعقة المدوية التى تركتهم موتى على هيئتهم مشهداً مخزياً .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ يأخذ العتاة أخذاً ولا يعز عليه أمر ،ولا يهون من يتولاه ويرعاه، ثم يعود السياق إلى مشهدهم معجباً منهم ، ومن سرعة زوالهم ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ﴾ كأن لم يقيموا ويتمتعوا ؛ ثم الخاتمة المعهودة فى هذه السورة : تسجيل الذنب ، وتشييع اللعنة ، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى : ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ !

فنجد فى قصة صالح عليه السلام أن القوم واجهوا الآية الخارقة التى طلبوها،لا بالإيمان والتصديق، ولكن بالجحود وعقر الناقة .

ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله ﷺ خارقة كالخوارق السابقة كانوا يؤمنوا فهاا هم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التى طلبوا ، فما أغنت معهم شيئًا ، إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق إنه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول ، ولكن الجاهلية هى التى تطمس على القلوب والعقول .

ويعرض السياق فيما يعرض الأمم التى بوركت والأمم التى كتب عليها العذاب من عهد نوح ، ويلم بطرف من قصة إبراهيم ، تتحقق فيه البركات ، وفى الطريق إلى قصة قوم لوط الذين مسهم العذاب الأليم . وفى قصتى إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ هنا يتحقق وعد الله بطرفيه لنوح : وقيل : ﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقد كانت البركات فى إبراهيم وعقبه من ولديه : إسحاق وأبنائه أنبياء بنى إسرائيل . وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبياء والمرسلين .

ويتحدث السياق هنا عن البشرى التى جاءت بها الملائكة لسيدنا إبراهيم ولا يفصح السياق عن هذه البشرى إلا فى موعدها المناسب بحضور امرأة إبراهيم ! والرسل : الملائكة وهم هنا مجهولون ، فلا ندخل ـ مع المفسرين ـ فى تعريفهم وتحديد من هم بلا دليل .

وتحكى القصة أن إبراهيم عليه السلام كان قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه فى العراق ، وعبر الأردن ، وسكن فى أرض كنعان فى البادية ـ وعلى عادة البدو فى إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لهم الطعام وقد ظنهم ضيوفاً : ولكن الملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض ﴿ فَلَمَّا

رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾ وعند هذا كشفوا له عن حقيقتهم ، فيدرك إبراهيم ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط ، وبشرت الملائكة زوجة إبراهيم بإسحاق ، وهى بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده وهو يعقوب .

ويقول صاحب الظلال : ولا عجب من أمر الله ، فالعادة حين تجرى بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل ، وعندما يشاء الله لحكمة يريدها ـ وهى هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه ـ يقع ما يخالف العادة ، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التى لا نعلم حدودها ، ولا نحكم عليها بما تجرى به العادة فى أمد هو على كل حال محدود ، ونحن لا نستقرئ جميع الحوادث فى الوجود . والذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله ـ سبحانه ـ فى كتابه وقوله الفصل ، وليس للعقل البشرى قول فى ذلك القول وحتى الذين يقيدون مشيئته بما يقرره الله ـ سبحانه ـ أنه ناموسه لا يدركون حقيقة الألوهية كذلك! فمشيئة الله ـ سبحانه ـ طليقة وراء ما قرره الله ـ سبحانه ـ من نواميس . ولا تتقيد هذه المشيئة بالنواميس .

يقول صاحب الظلال : نعم إن الله سبحانه يُجرى هذا الكون وفق النواميس التى قدرها له ، ولكنّ هذا شىء والقول بتقيد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شىء آخر ، إن الناموس يجرى وينفذ بقدر من الله فى كل مرة ينفذ فيها فهو لا يجرى ولا ينفذ آلياً فإذا قدرالله فى مرة أن يجرى الناموس بصورة أخرى غير التى جرى بها فى مرات سابقة كان ما قدره الله ، ولم يقف الناموس فى وجه هذا القدر الجديد ، ذلك أن الناموس الذى تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق ، وتحقق الناموس فى كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على الداعى إلى الله أن يتمسك بدعوة الحق مهما لاقى فى سبيلها من آلام ومتاعب ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل .

٢ ـ السلام خير تحية ، وحسن إكرام الضيف ، شيمة الدعاة الكرام إلى الله ، وهما وسيلتان للداعية فى جمع القلوب على الدعوة .

٣ ـ استحباب تبشير المؤمن بما هو خير له وبالرؤيا الصالحة .

٤ ـ مشروعية خدمة أهل البيت لضيوفهم ، ووجوب إكرام الضيف وفى الحديث الصحيح : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٢٣٠

معانى الكلمات :

مجيد : الممجد فى ذاته وصفاته.

الروع : الخوف والفزع .

لحليم : متأنّ غير عجول .

أواه : كثير التأوه من خوف الله .

منيب : راجع إلى الله .

سىء بهم : حزن بسببهم .

ضاق بهم ذرعاً : ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم .

يوم عصيب : شره شديد .

يهرعون : يسرعون.

بقطع من الليل : بطائفة منه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نأخذ العبرة والعظة من خلق سيدنا إبراهيم الذى اتصف بالحلم والأناة والتأوه والإنابة إلى الله .

٢ ـ بيان مشروعية الجدال فى الحق عمن يُرجى له الخير من الناس دون أن يؤدى إلى تفرق مذموم .

٣ ـ أن نوقن أن قدر الله وقضاءه لا يُرد فما حكم الله به لابد واقع .

المحتوى التربوى :

نتواصل مع الآيات وإلى هنا كان إبراهيم عليه السلام قد اطمأن إلى رسل ربه ، وسكن قلبه بالبشرى التى حملوها إليه، ولكن هذا لم ينسه لوطاً وقومه وهو ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه والساكن قريباً منه ـ وما ينتظرهم من وراء إرسال الملائكة من هلاك واستئصال ، وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودودة لا تجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعاً .

وتصف الآيات إبراهيم الحليم الذى يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنى ولا يثور ، والأوّاه الذى يتضرع فى الدعاء من التقوى ، والمنيب الذى يعود سريعاً إلى ربه ، وهذه الصفات كلها دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة فى مصير قوم لوط ؛ وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدل؛ لأن النص القرآنى لم يفصله ، فجاءه الرد بأن أمر الله فيهم قد قضى وأنه لم يعد للجدال مجال .

ويقول صاحب الظلال : ويسكت السياق ـ وقد سكت ولا شك إبراهيم ، ويسدل على مشهد إبراهيم وزوجه ليرفع هناك على مشهد حافل بالحركة والانفعال مع لوط ، وقوم لوط فى مدن الأردن : عمورية وسدوم .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ .. لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين . إذ يتركون النساء إلى الرجال ، مخالفين الفطرة التى تهتدى إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً ، كى تمتد الحياة بالنسل ما شاء الله لها ، والتى تجد اللذة الحقيقية فى تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء واستقامة .

والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة ، وهى تشير إلى أن المرض النفسى يُعدى كالمرض الجسدى . وأنه يمكن أن يَروجَ مرض نفسى كهذا نتيجة لاختلاف المقاييس فى بيئة من البيئات ، وانتشار المثل السيىء ، عن طريق إيحاء البيئة المريضة ! على الرغم من مصادمته للفطرة ، التى يحكمها الناموس الذى يحكم الحياة .

ويقول صاحب الظلال : ولقد نجد أحياناً لذة فى الموت ـ فى سبيل غاية أسمى الحياة الدنيا ولكنها ليست لذة حسية ، إنما هى معنوية اعتبارية وأن هذه ليست مصادمة للحياة ، إنما هى إنماء لها وارتفاع بها من طريق آخر ، وليست فى شىء من ذلك العمل الشاذ الذى يعدم الحياة وخلاياها .

سىء لوط بأضيافه ، وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه، ويدرك الفضيحة التى ستناله فى أضيافه ﴿ وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ! وبدأ اليوم العصيب ! ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ فى حالة تشبه الحمى ، هرعوا إليه يهددونه فى ضيفه وكرامته ، فحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذى خلقه الله للرجال ، وعنده منه فى داره بناته ، فهن حاضرات إذا شاء الرجال المحمومون تم الزواج على الفور ، وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة .

فى خطاب لوط لقومه نلحظ أنه فيهم الفطرة السليمة وعرض عليهم أن يتزوجوا من بناته ، ولما لم يستجيبوا لم ييأس الداعية بل لجأ إلى مروءتهم وقال : ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ﴾ .

وأسقط فى يد لوط ، وأحس ضعفه وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ، وليس له قوة فى هذا اليوم العصيب ، وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة .. ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

وغاب عن لوط فى كربته وشدته أنه يأوى إلى ركن شديد . ركن الله الذى لا يتخلى عن أوليائه ـ كما قال رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد » !

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وبلغ الكرب أشده ، كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذى يأوى إليه ، وأنبؤوه نبأهم ؛ لينجو مع أهل بيته الطاهرين إلا امرأته فإنها كانت من القوم الفاسقين .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

فأمر ألا يلتفت منهم أحد ، أى لا يتخلف ولا يعود ؟ لأن الصبح موعدهم مع الهلاك ، فكل من بقى فى المدينة فهو هالك مع الهالكين ، ولتقريب الموعد وتأكيده يطرح سؤالاً لإنعاش نفس لوط بعد ما ذاق ، فالموعد مع مطلع الصبح ، ثم يهلك الله القوم ـ بقوته ـ ما لم تكن قوة لوط التى تمناها فاعلة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قدرة الله ـ تعالى ـ على خلق ما شاء من عباده فى أى وقت شاء .

٢ ـ مشروعية الجدال عمن يُرجى له الخير من الناس ، وذلك فى غير الحدود الشرعية إذا رفعت إلى الحاكم .

٣ ـ قضاء الله لا يُرد ـ أى ما حكم الله به لا بد واقع .

٤ ـ فضيلة إكرام الضيف وحمايته من كل ما يسوء .

٥ ـ أسوأ الحياة ألا يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

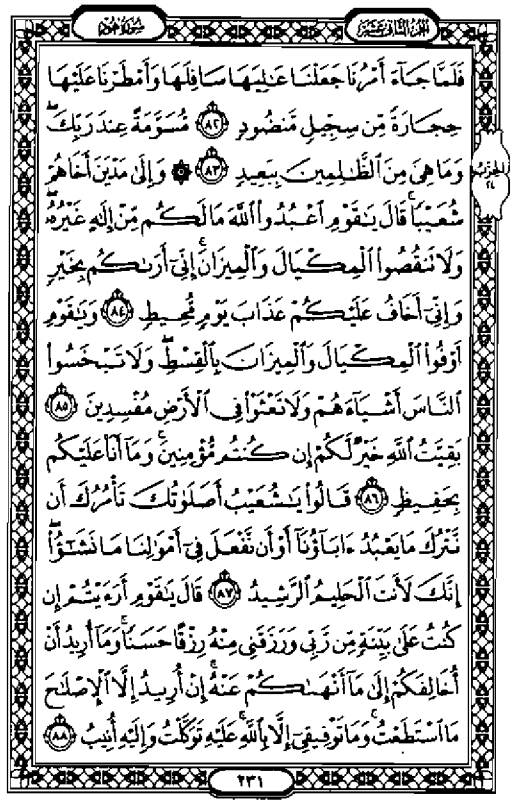
فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ
وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ
وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ
أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن
نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟
إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ
مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
٢٣١

معانى الكلمات :

سجيل : طين أوقد عليه بالنار كالفخار .

منضود : متتابع .

مسومة : معلمة للعذاب.

أراكم بخير : بغنى وسعة .

يوم محيط : مهلك .

لا تبخسوا : لا تنقصوا .

ألا تعثوا : لا تفسدوا أشد الإفساد .

بقية الله : ما أبقاه لكم الله من الحلال .

بحفيظ : برقيب .

أرأيتم : أخبرونى .

أنيب : أرجع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن دعوة الرسل واحدة كلها تدعو إلى توحيد الله ـ تعالى ـ ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإسعاد الإنسان بعد نجاته من النار .

٢ ـ أن نرضى بالحلال ـ وإن قل ، ونسخط الحرام ـ وإن كثر .

٣ ـ ألا نبخس الناس أشياءهم وأن نوفى الناس حقوقهم فى الكيل والميزان وكل ما عداه .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات لترسم المشهد الأخير ـ مشهد الدمار المروع ، فلما جاء موعد تنفيذ الأمر : ﴿ جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ .. وهى صورة للتدمير الكامل الذى يقلب كل شىء ويغير المعالم ويمحوها ، وجعل عاليها سافلها أشبه شىء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان ، بل أحط من الحيوان ، والصورة التى ترسمها الآيات هنا لهذه النازلة التى أصابت قوم لوط أشبه شىء ببعض الظواهر البركانية التى تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل ، وعند ربك للظالمين كثير !!!

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة ، ينهض به شعيب فى قومه أهل مدين ، ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى وهى قضية الأمانة والعدالة فى التعامل بين الناس ، وهى وثيقة الصلة بالعقيدة فى الله والدينونة له وحده ، واتباع شرعه وأمره ، وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة ، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله !

والقضية هنا هى قضية الأمانة والعدالة ـ بعد قضية العقيدة والدينونة ـ أوهى قضية الشريعة والمعاملات التى تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة ، فقد كان أهل مدين ـ وبلادهم تقع فى الطريق من الحجاز إلى الشام ـ ينقصون المكيال والميزان ، ويبخسون الناس أشياءهم أى : ينقصونهم قيمة أشيائهم فى المعاملات ، وهى رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس المروءة والشرف ، كما كانوا ـ بحكم موقع بلادهم ـ يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة والآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها ويتحكموا فى طرق القوافل ، ويفرضوا ما يشاؤون من المعاملات الجائرة التى وصفها الله فى هذه السورة ، ومن ثم تبدو علاقة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول ، فهى بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل ، وضمانة للعدل والسلام فى الأرض بين الناس ، وهى الضمانة الوحيدة التى تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه ، فتستند إلى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء .

ويقول صاحب الظلال : « إن المعاملات والأخلاق لابد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة .. هذه هى نظرة الإسلام ، وهى تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التى ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم !

وينصح شعيب قومه قائلاً : إن الله قد رزقكم رزقاً حسناً ، فلستم فى حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنى ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال والميزان . بل إن هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش فى المعاملة ، أو غصب فى الأخذ والعطاء .

﴿ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾ ، ومرة أخرى يكرر شعيب نصحه فى صورة إيجابية بعد صورة النهى السلبية : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ وإيفاء المكيال والميزان أقوى من عدم نقصهما ، لأنه أقرب إلى جانب الزيادة ، ونصح بما هو أعم من المكيلات والموزونات فقال لهم : ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ .

ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد ، وسوء الاستغلال : وردوا عليه رد التهكم والمعاندة بلا معرفة ولا فقه ، **وكما يقول صاحب الظلال** : هم لا يدركون ـ أولا يريدون أن يدركوا ـ أن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة ، وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله فى التجارة وفى تداول الأموال وفى كل شأن من شؤون الحياة والتعامل، فهى لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة .

ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذى معه ؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم ، يتلطف فى إشعارهم فى أنه على بينة من ربه كما يجده فى ضميره وقلبه ؛ وأنه على ثقة مما يقول ؛ لأنه أوتى من العلم ما لم يؤتوا ، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة فى المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها ؛ لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات ، فهو لا يبغى كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم؛ فلن ينهاهم عن شىء ثم يفعله هو لتخلو له السوق! إنما هى دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس ، وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون .

فى دعوة شعيب لقومه نموذج عملى للداعية ؛ بأن يكون قريبًا من قومه حتى يروا موطن القدوة فيه ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وأن يذكرهم بجوانب الخير فيهم ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ وأن لا يبغى من دعوتهم ثمنًا ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ ﴾ ، وأن يبشرهم ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وأن ينذرهم ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وحدة دعوة الرسل وهى البداية بتوحيد الله ـ تعالى ـ أولاً ، ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لإكمال لسعادة الإنسان بعد نجاته من الخسران .

٢ ـ حرمة نقص الكيل والوزن أشد حرمة .

٣ ـ وجوب الرضا بالحلال وإن قل ، وسخط الحرام وإن كثر .

٤ ـ حرمة بخس الناس حقوقهم كأجور العمال ، وأسعار البضائع ونحو ذلك .

٥ ـ حرمة السعى بالفساد فى الأرض بأى نوع من الفساد ، وأعظمه تعطيل شرائع الله تعالى .

٦ ـ كراهية إتيان الشىء بعد النهى عنه ، وترك الشىء بعد الأمر به والحث عليه مصداقاً لقوله ـ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (الصف) .

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى
رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ
ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾
٢٣٢

معانى الكلمات :

لا يجرمنكم : لا يحملنكم .

شقاقى : خلافى .

ودود : محب لهم .

رهطك : جماعتك وعشيرتك .

وراءكم ظهرياً : منبوذاً وراء ظهوركم ، منسياً .

مكانتكم : حالتكم ، أو غاية تمكنكم من أمركم .

جاثمين : هامدين .

بعدت ثمود : هلكت .

رشيد : سديد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتبر بما حدث للأمم السابقة ويكون لنا فى قصصهم عبرة وآية .

٢ ـ أن نداوم على الاستغفار والتوبة دائماً لنيل رضا الله تعالى .

٣ ـ أن نصبر وقت الأزمة ونعلم أن اشتدادها مؤذن بانفراجها .

المحتوى التربوى :

بعد أن تلطف شعيب عليه السلام مع قومه ، أخذهم فى واد آخر من التذكير ، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط ، فقد يفعل هذا فى مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلى اللين الذى يحتاج إلى رشد وتفكير ، ودعاهم ألا يحملهم الخلاف معه والعناد فى مواجهته على اللجاج فى التكذيب والمخالفة ، خشية أن يصيبهم ما أصاب الأقوام قبلهم وهؤلاء قوم لوط قريب منهم فى المكان والزمان ، فمدين كانت بين الحجاز والشام .

ثم يفتح لهم ـ وهم فى مواجهة العذاب والهلاك ـ باب المغفرة والتوبة ، ويطمعهم فى رحمة الله والقرب منه بأدق الألفاظ وأحناها ، وهكذا يطوف بهم فى مجالات العظة والتذكر والخوف

والطمع ، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين ، ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب ، ومن سوء تقدير القيم فى الحياة ، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك ، ما كشف عن تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب .

ويعلق صاحب **الظلال** على سلوكهم قائلاً : « وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العليا ، فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه. أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها، ولا ظل فى تلك النفوس الفارغة الخاوية .

وعندئذ تأخذ شعيباً الغيرة على جلال ربه ووقاره ؛ فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه ؛ ويجبههم بسوء التقدير لحقيقة القوى القائمة فى هذا الوجود ، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون ، ويلقى كلمته الفاصلة الأخيرة ، ويفاصل قومه على أساس العقيدة ؛ ويخلى بينهم وبين الله ، وينذرهم العذاب الذى ينتظر أمثالهم ، ويدعهم لمصيرهم الذى يختارون .

ويعلق صاحب **الظلال** على رد شعيب عليه السلام على قومه : ﴿ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ... الآية قائلاً : « إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يُستباح جلاله ـ سبحانه ـ ووقاره . الغضبة التى لا يقوم إلى جوارها شىء من الاعتزاز بنسبه ورهطه ، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذى يريدونه ! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه ـ الذين افترق طريقهم عن طريقه ـ وهذا هو الإيمان فى حقيقته ، إن المؤمن لا يعتز إلا بربه ؛ ولا يرضى أن تكون له عصبة تخشى ولا يخشى ربه ! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه ، إنما هى لربه ودينه ، وهذا هو مفرق الطريق فى الحقيقة بين التصور الإسلامى والتصور الجاهلى فى كل أزمانه وبيئاته!

ومن هذه الغضبة لله ، والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه ، ينبعث ذلك التحدى الذى يوجهه شعيب إلى قومه ؛ وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم ـ بعد أن كان واحداً منهم ، ويفترق الطريقان فلا يلتقيان .

فى قوله تعالى عن لسان شعيب : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ نلاحظ أسلوب الداعى هود لقومه فهو يستميلهم لا لينفر عنهم ، ولم يتهمهم بالكذب بل أرجأ ذلك كى يروه بعيونهم ، وذلك الأسلوب دأب الأنبياء فجاء على لسان نوح عليه السلام ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ

مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾، وجاء فى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾ (سبأ: ٢٥) وجاء تعليل ذلك فى قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ويسدل الستار هنا على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة، وعلى هذا الافتراق، ليُرفع هناك على مصرع القوم، وعلى مشهدهم جاثمين فى ديارهم، أخذتهم الصاعقة التى أخذت قوم صالح، فكان مصيرهم كمصيرهم، خلت منهم الدور، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر، وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد.

وتأتى خاتمة ذلك القصص بالإشارة إلى قصة موسى مع فرعون، لتسجيل نهاية فرعون وملئه، ونهاية قومه الذين اتبعووا أمره، ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزوداً بقوة من الله وسلطان، إلى فرعون ذى السلطان المزعوم وكبراء قومه.

ويجمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها، فإذا هم يتبعون أمر فرعون، ويعصون أمر الله. على ما فى أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط. ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

ولما كانوا تبعاً لفرعون فى هذا الأمر، يمشون خلفه، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكر، دون أن يكون لهم رأى، مستهينين بأنفسهم، متخلفين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق.. لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً، هذا الذى لم يكن أمره برشيد.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ ضرورة الاعتبار بما حدث للأمم السابقة، حتى لا نقع فيما وقعوا فيه فيصيبنا ما أصابهم.

٢ ـ أهمية الاستغفار والتوبة لنيل رضا الله ـ سبحانه وتعالى.

٣ ـ الذين يتبعون الضالين من الناس فى الدنيا سوف يتبعونهم يوم القيامة إلى نار جهنم.

٤ ـ اشتداد الأزمات مؤذن بقرب انفراجها.

٥ ـ التحذير من اتباع رؤساء الشر وأئمة الفتن والضلال.

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ
ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ
ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ
مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ
أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ
ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى
ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾
٢٣٣

معانى الكلمات :

أوردهم : أدخلهم .

الورد المورود : المدخل المدخول فيه وهو النار .

الرفد المرفود : العطاء المعطى لهم وهو اللعنة .

حصيد : لا أثر له كالزرع المحصود .

غير تتبيب : غير تخسير وإهلاك .

لأجل معدود : وقت معلوم .

زفير : إخراج شديد للنَّفس من الصدر .

غير مجذوذ : غير مقطوع لهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان سنة الله الكونية فى إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين .

٢ ـ أن نعرف معيار الشقاء والسعادة الحقيقى لا الظاهرى .

٣ ـ أن نؤمن بطلاقة القدرة التى لا تقيدها السنن الكونية .

المحتوى التربوى :

فى الآيات وتواصلاً مع قصة موسى عليه السلام مع فرعون يقرر السياق أن فرعون ، سيقدم قومه يوم القيامة ويكونون له تبعاً ، وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضى ووعداً عن المستقبل ، إذا بالمشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى ، فأوردهم النار ، كما يورد الراعى قطيع الغنم ، ألم يكونوا قطيعا يسيرُ بدون تفكير ، فأوردهم النار ويا بؤساه من ورد لا يروى غلة ، ولا يشفى صَدراً ، إنما يشوى البطون والقلوب . ويُسخر منها ويُتهكم عليها : ﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ .

فهذه النار هى الرفد والعطاء والمنة التى رفد بها فرعون قومه !! ألم يعد السحرة عطاء جزيلاً ورفداً مرفوداً ، فها هو ذا رفده لمن تبعه ، النار ، وبئس الورد المورود . وبئس الرفد المرفود .

ويأتى التعقيب على أحداث هذا القصص ، ومصارع القوم معروضة ، ومشاهدهم تزحم النفس والخيال ؛ منهم الغارقون فى لجة الطوفان الغامر ، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض ، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وما حل بهم من قبل فى الدنيا يخايل للأنظار فى هذا الموقع .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ فما كان لك به من علم ، إنما هو الوحى ينبئك بهذا الغيب المطمور وذلك بعض أغراض القصص فى القرآن ، فقد افتتحت السورة بإنذار الذين يدينون لغير الله سبحانه ، وتكرار الإنذار مع كل رسول ؛ وقيل لهم : إن هذه الأرباب المفتراة لا تعصمهم من الله ، فها هى ذى العاقبة تصدق النذر ، فلا تغنى عنهم آلهتهم شيئاً ، ولا تدفع عنهم العذاب لما جاء أمر ربك ، بل ما زادهم هؤلاء الآلهة إلا خسارة ودماراً ذلك أنهم اعتمدوا عليهم .

فزادوا استهتاراً وتكذيباً ، فزادهم الله نكالاً وتدميراً ، فهذا معنى ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ ﴾ فهم لا يملكون لهم ضراً ، كما أنهم لا يملكون لهم نفعاً ، ولكن بسببهم كانت الخسارة المضاعفة والتدمير المضاعف والنكال الشديد .

ويقول الله عز وجل لنبيه كذلك الذى قصصناه عليك ، وبمثل هذا الدمار والنكال يأخذ ربك القرى حين يأخذها وهى ظالمة مشركة حين تدين لغير الله بالربوبية ، وظالمة لنفسها بالشرك والفساد فى الأرض والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح ، وقد ساد فيها الظلم وسيطر الظالمون .

وذلك الأخذ الأليم الشديد فى الدنيا علامة على عذاب الآخرة ، يراها من يخافون عذاب الآخرة ، أى الذين تفتحت بصائرهم ليدركوا أن الذى يأخذ القرى بظلمها فى هذه الحياة سيأخذها بذنوبها فى الآخرة ، فيخافوا هذا العذاب .

والذين لا يخافون الآخرة لا تتفتح قلوبهم وتظل صماء ، ولا تحس بحكمة الخلق والإعادة ، ولا ترى إلا واقعها القريب فى هذه الدنيا ، وحتى العبر التى تمر فى هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهماً .

ويصف المولى عز وجل هذا اليوم الذى يجتمع فيه الخلق جميعاً على غير إرادة منهم والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون ، فالصمت الهائل يغشى الجميع ، والرهبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه ، والكلام بإذن لا يجرؤ أحد على طلبه ، ولكن يؤذن لمن يشاء فيخرج من صمته بإذنه .. ثم تبدأ عملية التوزيع ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

ومن خلال الآيات نشهد : ﴿ ٱلَّذِينَ شَقُواْ ﴾ نشهدهم فى النار مكروبى الأنفاس ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ من الحر والضيق . ونشهد ﴿ ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾ فى الجنة لهم فيها عطاءٌ دائم غير مقطوع ولا ممنوع . وهؤلاء خالدون حيث هم ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ ، ولقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله فى كلتا الحالتين ، وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله فى النهاية .

يقول صاحب الأساس بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ذكر ابن كثير ما رواه أبو يعلى فى مسنده عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ سألت النبى ﷺ : فقلت : يارسول الله ، علام نعمل ؟ على شىء قد فُرغ منه أم على شىء لم يفرغ منه ؟ فقال : « على شىء قد فرغ منه يا عمر وجَرَتَ ، به الأقلام ، ولكن كلّ ميسَّر لما خلق له » .

ونعود إلى السياق فنجده زاد فى حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلى أن مشيئة الله اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع ، حتى على فرض تبديل إقامتهم فى الجنة ، وهو مطلق فرض ، يذكر لتقرير حرية المشيئة بعدما يوهم التقييد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ لا يظلم أحداً من عباده ، ولكن الناس يظلمون أنفسهم بتكذيب الرسل ، وكفرهم بربهم ، وارتكابهم الذنوب والمعاصى .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ يمهل الظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته .

٣ ـ إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين من سنن الله الكونية التى لا تتخلف .

٤ ـ فى يوم القيامة لا يتكلم أحد ، ولا يشفع أحد لأحد إلا بإذن الله ـ تعالى ـ

٥ ـ الشقاء الحقيقى فى دخول النار ، والسعادة الحقيقية فى دخول الجنة .

٦ ـ إرادة الله مطلقة ، لو شاء أن يخرج أهل النار لأخرجهم منها ، ولو شاء أن يخرج أهل الجنة لأخرجهم إلا أنه حكم بما أخبر به وهو العزيز الحكيم .

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ
﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا
كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ
فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾
٢٣٤

معانى الكلمات :

فلا تك فى مرية : فلا تكن فى شك .

مريب : موقع فى الشك .

لا تطغوا : لا تجاوزوا حدود الله .

لا تركنوا : لا تمل قلوبكم بالمحبة .

زلفاً من الليل : ساعات منه قريبة من النهار .

القرون : الأمم .

أولو بقية : أصحاب فضل وخير .

ما أترفوا فيه : ما أنعموا فيه من الخصب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن سنن الله ماضية على استقامتها فى خلقه وفى دينه وفى وعده ووعيده .

٢ ـ أن ندرك مفهوم الاستقامة ونلتزم بها دون إفراط ولا تفريط .

٣- أن نحافظ على الصلوات فى أوقاتها ، ونتصبر بها على الاستقامة على طريق الدعوة .

المحتوى التربوى :

بعد هذا الاستطراد إلى المصير فى الآخرة ، فى الآيات السابقة ، بمناسبة عرض مصائر الأقوام فى الدنيا ، والتشابه بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وتصوير ما ينتظر المكذبين هنا أو هناك ، أو هنا ثم هناك ، يعود السياق بما يُستفاد من القصص ومن المشاهد إلى الرسول ﷺ والقلة المؤمنة معه فى مكة ـ تسرية وتثبيتاً ، وإلى المكذبين من قومه بياناً وتحذيراً ، فليس هناك شك فى أن القوم يعبدون ما كان آباؤهم يعبدون ـ شأنهم شأن أصحاب ذلك القصص وأصحاب تلك المصائر ، ونصيبهم الذى يستحقونه سيوفونه . فإن كان قد أخر عنهم فقد أخر عذاب الاستئصال عن قوم موسى ـ بعد اختلافهم فى دينهم ـ لأمر قد شاءه الله فى إنظارهم .

ولكن قوم موسى وقوم محمد على السواء سيوفون ما يستحقون ، بعد الأجل ، وفى الموعد المحدود ، ولم يؤخر عنهم العذاب ؛ لأنهم على الحق ، فهم على الباطل الذى كان عليه آباؤهم بكل تأكيد .

ويقول صاحب الظلال : « ولحكمة ما سبقت فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لم يحل عذاب الاستئصال بهم ، لأن لهم كتاباً ، والذين لهم كتاب من اتباع الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم القيامة ، لأن الكتاب دليل هداية باق ، تستطيع الأجيال أن تتدبره كالجبل الذى أنزل فيه ، والأمر ليس كذلك فى الخوارق المادية التى لا يشهدها إلا جيل ، فإما أن يؤمن بها ، وإما ألا يؤمن فيأخذه العذاب .

والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجىء الكتاب الخير ، مصدقاً لما بين يديه فيصبح هو الكتاب الخير للناس جميعاً يُدعى إليه الناس جميعاً، ويحاسب على أساسه الناس جميعاً ، بما فيهم أهل التوراة وأهل الإنجيل ، إنهم أى قوم موسى ، ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ من كتاب موسى، لأنه لم يكتب إلا بعد أجيال، وتفرقت فيه الروايات واضطربت ، فلا يقين فيه لمتبعيه .

وإن كان العذاب قد أُجل ، فإن الكل سيوفون أعمالهم خيرها وشرها سيوفيهم بها العليم الخبير ، ولن تضيع .

وبعد ذلك البيان والتوكيد يُلقى فى النفس أن سنة الله ماضية على استقامتها فى خلقه وفى دينه وفى وعده ووعيده ، وإذن فليستقم المؤمنون بدين الله والداعون له على طريقتهم ـ كما أمروا ـ لا يغلون فى الدين ولا يزيدون فيه ، ولا يركنون إلى الظالمين مهما تكن قوتهم ، ولا يدينون لغير الله مهما طال عليهم الطريق ثم يتزودون بزاد الطريق ، ويصبرون حتى تتحق سنة الله عندما يريد .

ويقول صاحب الظلال : « والاستقامة هى الاعتدال والمضى على النهج دون انحراف ، وهو فى حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ،والتحرى الدائم لحدود الطريق ، وضبط انفعالات البشرية التى تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً، ومن ثم فهى شغل دائم فى كل حركة من حركات الحياة.

ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو ، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير ، وهى التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لإمساك النفوس على الصراط ، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء .

والاستقامة على الطريق فى مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زارعين، والله ـ سبحانه ـ يرشد رسوله ﷺ ومن معه من القلة المؤمنة إلى زاد الطريق ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذى يبقى حين يفنى كل زاد ، والذى يقيم البنية الروحية ، ويمسك القلوب على الحق الشاق التكاليف . ذلك أنه يصل هذه القلوب بربها الرحيم الودود ، القريب المجيب، ينسم عليها نسمة الأنس فى وحشتها وعزلتها فى تلك الجاهلية النكدة الكنود .

والنص يعقب على الأمر بإقامة الصلاة ـ أى أدائها كاملة مستوفاة ـ بأن الحسنات يذهبن السيئات . وهو نص عام يشمل كل الحسنات ، والصلاة من أعظم الحسنات ، فهى داخلة فيه بالأولوية . لأن الصلاة هى الحسنة التى تذهب السيئة بهذا التحديد ـ كما ذهب بعض المفسرين ـ

والاستقامة إحسان ، وإقامة الصلاة فى أوقاتها إحسان ، والصبر على كيد التكذيب إحسان ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

ثم يعود السياق إلى التعقيب على مصارع القرى والقرون . فيشير من طرف خفى إلى أنه لو كان فى هذه القرون أولو بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله ، فينهون عن الفساد فى الأرض، ويصدون الظالمين عن الظلم ، ما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذى حل بهم ، فإن الله لا يأخذ القرى بظلم إذا كان أهلها مصلحين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ إذا كان الرسول ﷺ قد أُمر بالاستقامة على أمر الله ، وهو أفضل من استقام على الدين ، فإن جميع الخلق أولى بهذا الأمر ؛ لذلك ورد فى الحديث الجامع : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

٢ ـ من ركن إلى ظالم ومال قلبه إليه استحق العذاب ، وكان شريكاً للظالم فى ظلمه ، وسلط الله هذا الظالم عليه .

٣ ـ أهمية المحافظة على الصلوات فى أوقاتها تامة كاملة فى خشوع ، وأن الطاعات يمحو الله بها السيئات .

٤ ـ حرمة الغلو وتجاوز ما حد الله تعالى فى شرعه .

٥ ـ حرمة مداهنة المشركين أو الرضا بهم أو بعملهم ، لأن الرضا بالكفر كفر .

٦ ـ وجوب الصبر والإحسان فهما من أفضل الأعمال .

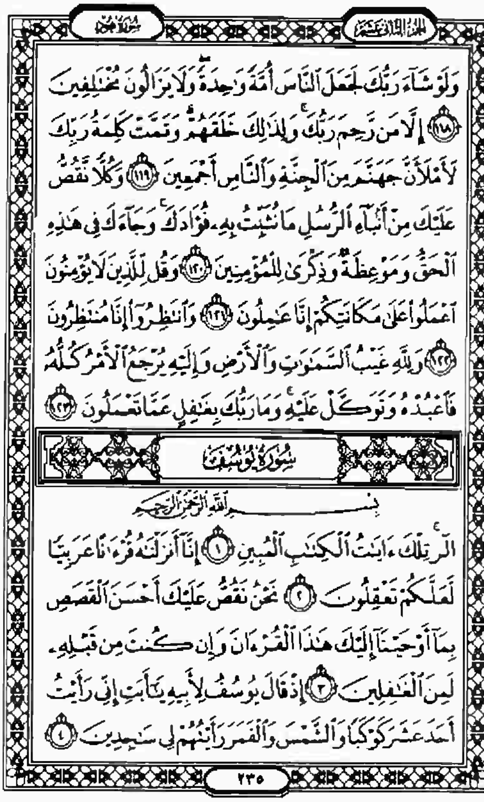
الجزء الثاني عشر — سورة هود

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
(١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلًّا نَّقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ
(١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ
لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)

٢٣٥

معاني الكلمات :

معاني المفردات :

أمة واحدة : أهل دين واحد .

مكانتكم : حالتكم .

الر : حروف للتحدى والإعجاز .

نقص عليك : على الرسول ﷺ .

رأيت : فى المنام .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتقد تمام الاعتقاد أن الأمر كله لله عز وجل ، لذا فهو أحق بالعبادة والتوكل عليه .

٢ ـ أن نقف على الدروس والعبر من القصص القرآنى ، فإنه نزل بحكمة .

٣ ـ أن نأخذ الحيطة والحذر فى الأمور الهامة أخذاً بالأسباب .

المحتوى التربوى :

ويأتى التعقيب الأخير فى سورة هود عن اختلاف البشر إلى الهدى والضلال ، وسنة الله المستقيمة فى اتجاهات خلقه إلى هذا أو ذاك ، ولو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد ، وباستعداد واحد ، ولكن شاء أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهات حياته ، وهكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته فى أن يكون لهذا المخلوق أن يختار، وأن يلقى جزاء منهجه الذى اختار .

والخاتمة الأخيرة . خطاب للرسول ﷺ عن حكمة سوق القصص إليه فى خاصة نفسه للمؤمنين ، فأما الذين لا يؤمنون فليلق إليهم كلمته الأخيرة ، وليفاصلهم مفاصلة حاسمة ،

وليخل بينهم وبين ما ينتظرهم فى غيب الله ، ثم ليعبد الله ، وليتوكل عليه ، ويدع القوم لما يعملون .

ومن بعد ذلك كله الأمر لله . أمر الرسول والمؤمنين ، وأمر هذا الخلق كله ما كان فى غيبه وما سيكون ﴿ فَٱعْبُدْهُ ﴾ فهو الجدير وحده بالعبادة والدينونة ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ فهو الولى وحده والنصير ، وهو العليم بما تعملون من خير وشر ، ولن يضيع جزاء أحد .

وهكذا تختم السورة التى بدئت بالتوحيد فى العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله فى النهاية ، بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده والرجعة إليه فى نهاية المطاف ، وذلك بعد طول التطواف فى آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون .

فى قوله : ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المؤمنة التى تتحرك به ، لتحقيق مدلوله فى عالم الواقع لا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية ، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البيانى .

(سورة يوسف ١-٤)

تبدأ السورة بهذه الأحرف وما من جنسها وهى قريبة للناس متداولة بينهم هى هى بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية . آيات الكتاب المبين . ولقد نزله الله كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الحرف العربية المعروفة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وتدركون أن الذى يصنع الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أبداً أن يكون بشراً ، فلابد عقلاً أن يكون القرآن وحياً، والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة .

ويقول صاحب الظلال : ولما كان جسّم هذه الصورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب على وجه التخصيص ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ .

فبإيحائنا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص ـ وهو أحسن القصص ـ وهو جزء من القرآن الموحى ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ فقد كنت أحد الأميين فى قومك ، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التى جاء بها القرآن ، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق .

ويبدو هنا أن محور سورة يوسف هو قوله تعالى فى سورة البقرة ، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ ، ونلاحظ أن المقدمة ذكرت أن الله عز وجل يقص فى هذا القرآن أحسن القصص ، وكيف أن محمداً ﷺ كان قبل الوحى غافلاً ، فلم يكن متعلماً ولا مقبلاً على التعلم ،